مصادر الدراسات الصوتية

المحاضرة الرابعة

مادة /الصوت

م. نور أحمد عبدالله

١-**المعجمات العربية**/ تعتبر المعاجم العربية من مصادر التراث الصوتي، لأنها زخرت بفيض هائل من الفكر الصوتي عند العرب.

وقد تناولت القضايا الصوتية إمّا في المقدمة أو في ثنايا المادة اللغوية المجموعة.

ويرجع الفضل في الدراسة الصوتية إلى الخليل بن أحمد الذي وضع الأسس الأولى لعلم الأصوات العربية، ويتجلى ذلك من مقدمة "العين" حيث يقول محققا المعجم: "في هذه المقدمة بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدّة من عصر الخليل"

وبذلك احتل هذا المعجم مكانة سامية في اللغة العربية باعتباره أول معجم عربي، إن لم يكن أول معجم عالمي، ينظر بطريقة علمية دقيقة اعترف بها في ميدان الدراسات اللغوية المعاصرة، اهتدى إليها الخليل بفكره الثاقب وموهبته النادرة وعلمه الواسع.

وجاء تأليف معجمه مناسباً لمدارج الجهاز الصوتي انطلاقاً من الحلق إلى الشفتين، وذلك تبعاً لطريق مخرج الكلام الذي ينطلق بطبعه من الداخل إلى الخارج، فكان الخليل يتذوق الحروف بفتح فمه ثم ينطق بالألف ويظهر الحرف نحو: "أبْ- أت- أخْ- أعْ" إلى نهاية كل الحروف، فتم اختياره بداية الترتيب بالعين التي جعلها أول الكتاب ثم ما قارب منها، الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها، فتوصل إلى الترتيب التالي: **ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ي ء**

وقد رسم الخليل الطريقة التي "يمكن بها معرفة مخرج الصوت، وكان في ذلك موفقاً كل التوفيق إلى حدّ أن علم الأصوات الحديث يعترف بكثير من آرائه ومقاييسه الصحيحة"

٢-المصنفات النحوية الصرفية:

يقوم كثير من أصول النحو العربي على أسس صوتية كتفسير كثير من الآثار الإعرابية التي تطرأ على الكلمات.

فلقد حوت المصنفات النحوية الصرفية بين ثناياها كثيراً من ملامح التراث الصوتي العربي، وضمت دراسة مسهبة للمنحى الفسيولوجي المتعلق بكيفية تكوين الأصوات وإصدارها، وما ينجم عن ذلك من تنوع في صفاتها.

فقد خصص النحاة بعض الأبواب في كتبهم للدراسة الصوتية وخاصة حين تعرضهم لباب الإدغام أو الحديث عن قواعد الإعلال والإبدال.

وكتاب سيبويه شاهد عدل على ذلك، وكذا المفصل للزمخشري، والجمل للزجاجي وغيرها من المصادر التي لا تخلو من الإشارة إلى الملاحظات الصوتية.

فسيبويه- مثلاً- أشار إلى كثير من الخصائص الصوتية، واتسم تصنيفه بالدقة والشمول، تناقلته التأليف العربية بعده، وهي معلومات مأخوذة من دون شك عن أستاذه الخليل وإن كان لا يتحدث عن ذلك إطلاقاً.

يتعرض في موضوع الإدغام إلى الأصوات فيقول: " هذا باب عدد الحروف العربية، ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها.

فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو"

ويضع سيبويه ستة عشر مخرجاً لحروف العربية، وما يلفت الانتباه هو أنهن يضع الهمزة والألف في مخرج أقصى الحلق وفي وسطه العين والحاء وهو يخالف في ذلك الخليل الذي جعل العين والحاء أقصى الحلق، وجعل الهمزة مع الواو والألف والياء.

ويتناول صفات الأصوات من جهر وهمس وشدة ورخاوة ومنحرفة، ومكررة ولينة وهاوية ومطبقة ومنفتحة ويختم ذلك بقوله: "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز

فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالاً لما تدغم، وما تخفيه وهو بِزِنَةِ المتحرك"

فلم يخل مصنف في النحو لم يتعرض إلى القضايا الصوتية وهذا للعلاقة التي تربط العلمين.

٣-المصنفات الأدبية:

ناقشت المصنفات الأدبية كثيراً من القضايا الصوتية، ولاسيما الجانب النطقي أو الفسيولوجي منها، ومن هذه المصنفات "البيان والتبيين" للجاحظ.

فلقد تعرّض إلى تعريف الصوت حيث قال: "هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت"

وأشار أيضاً إلى البناء الصوتي للكلمة العربية، وإلى ما يأتلف في نسجها وما لا يأتلف، أي ما عرف بالتنافر والتلاؤم، حيث قال: "فأما في افتراق الحروف، فإن الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء.. بتقديم، ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين والضاد ولا الذال..

٤- مصنفات البلاغة وإعجاز القرآن:

لما كانت العلاقة جد وثيقة بين البلاغة والأصوات في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة، فلا غرو أن تضم المصنفات البلاغية وإعجاز القرآن بين ثناياها حديثاً عن الأصوات، ومناقشات ترتبط بصميم الميدانين الفوناتيكي والفونولوجي، وخاصة حين تعرضها للفصاحة وما يرتبط بتنافر وائتلاف الحروف.

ومما يمكن الاستشهاد به، على سبيل التوضيح لا الحصر جميع ما ورد في المصنفات العديدة، ما جاء في "سرّ الفصاحة" لابن سنان الخفاجي الذي يرى أنه كلّما تباعدت مخارج حروف اللفظة حسن وقعها على السمع، وكلما تقاربت قبح، فذكر ذلك في قوله: "إن الحروف وهي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر. ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا

جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة في العلة في "حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة

٦- علم القراءات والأداء القرآني:

تعد مصنفات التجويد من أهم مصادر التراث الصوتي، بل منابعه الأولى التي أدت دوراً مهماً في الحفاظ على النطق السليم لأصوات اللغة العربية.

فقد كان علماء القراءات من أحرص القوم على تناول المباحث الصوتية في مؤلفاتهم التي ضمت كثيراً من الخصائص والمصطلحات الصوتية مثل الإشمام والإشباع والاختلاس والمد، والتفخيم والترقيق ونحوها، كما وضعوا رموزاً كتابية تمثلها

وجمع هذا التناول للمادة الصوتية بين النظري والتطبيق "فعرض لمخارج الحروف وصفاتها وتقسيماتها وفق ذلك، والملامح الأدائية لها في السياقات المختلفة والتجاورات المتنوعة"

وما يعرف عن مراحلها الأولى هو أن أوّل من استخدم هذا المصطلح قريباً من معناه هو ابن مسعود الصحابي الذي كان ينصح المسلمين بقوله: "جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات" ويروى أنه كان يتفنن في تجويده وترتيله، وأن الرسول (ص) كان يجهش بالبكاء حين يسمع القرآن الكريم بترتيل ابن مسعود.

على الرغم من تناثر الدراسة الصوتية في مصادر مختلفة من التراث العربي، وكثرة العلماء والباحثين في هذا الميدان، إلا أنه لم يظهر مصدر مستقل يجمع شتات القضايا الصوتية وضم متفرقاتها إلا في فترة متأخرة من مسيرة البحث اللغوي العربي، وذلك على يد ابن جني في كتابه "سرّ صناعة الإعراب"، ولدى ابن سينا في رسالته الشهيرة" أسباب حدوث الحروف".

وقد يرجع سبب هذا التأخر إلى "طبيعة المنهج اللغوي قديماً في معالجة جوانب الدرس اللغوي بين دفتي المصدر الواحد، إذ لم يكن هناك فصل دقيق بين فروع الدراسات اللغوية

جهود ابن جني في الدراسات الصوتية

ويعد ابن جني أول من نظر إلى المبحث الصوتي على أنه علم قائم بذاته، وأنه أوّل من استعمل مصطلحاً لغوياً للدلالة على هذا العلم ما زلنا نستعمله إلى الآن وهو علم الصوت، وكان على حق حين قال:" وما علمت أن أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع"

بمعنى أن كتابه لم يكن جمعاً لآراء السابقين وأفكارهم، وإنما تميّز بالإضافات الجادة، تعبر عن نظرته العلمية الصائبة ودقتها الفائقة، "وتبين أنها دراسة لغوية مهمة يجب على عالم اللغة أن يضعها في الاعتبار

ومما يثير الإعجاب في هذه الدراسة اهتمام ابن جني بالجانب العملي التطبيقي كما يلاحظ ذلك في المختبرات الحديثة المعتمدة على الآلات والأجهزة المتطورة.

فقد شبه الحلق بالناي (المزمار)، وشبه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأصابع، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق صوت لا يشبه صوت صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب سماعنا هذه الأصوات المختلفة

ويربط ابن جني بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، فيقول: "إنّ علم الأصوات والحروف له تعلّق، ومشاركة للموسيقى، لما في صنعته الأصوات والنغم

وعلى العموم يمكن تلخيص محتويات الكتاب في العناصر التالية:

١-إعطاؤه المفهوم اللغوي للصوت والحرف، والفرق بينهما. .

٢-ذكره لعدد الحروف الهجائية العربية وترتيبها وذوقها. والحديث عن مخارجها وبيان صفات الحروف وتقسيمها أقساماً مختلفة.

٣-التغير الذي يطرأ على بنية الكلمة فيؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف. .

٤-ائتلاف الحروف بعضها مع بعض لتكون الكلمات، وأثرها في فصاحة اللفظ التي ترجع إلى تباعد مخارج الأصوات .